المطر آيات وعبر

أيها الموحدون، إن الله هو مغيث من استغاثه، وهو مفرج كرب من رجاه، ومجيب من دعاه، يعطي السائلين بلا عد ولا حساب، فسبحانه من رب كريم وإله عظيم، وبعباده رحيم، أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، ولهذا فاتقوا ربكم واستغفروه ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ*الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

نتحدث في هذا اليوم العظيم، عن نعمة عظيمة، من نعم الله علينا، وأية من آيات الله تعالى الكونية، الدالة على قدرته وعظمته، ودالة على رحمته سبحانه تعالى بنا، هذه الآية الكونية دالة أيضا على ضعف الإنسان، ودالة على حاجته لربه، ودالة على فقره وحاجته لرحمة الله وفضله.

إنها نعمة المطر، نعمة الغيث، وقود الحياة والأحياء، يقول عز شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

عباد الله: هذه النعمة التي يفرح لها الكبير والصغير، وينتفع بها الإنسان

والحيوان، وتنتعش بسببها الأرض وتدب بها الحياة من جديد، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾. ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

أولا– علينا أن نتفكر بقدرة الله وعظمته على إنزال المطر، وأن الله تعالى هو وحده القادر على إنزال الغيث، وأن من الخطأ العظيم أن يُنسَب إنزالُ المطر إلى غيره، وهذا من خصائص ربوبيته، يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ*أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ*لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

أأنتم أنزلتموه من المزن، أي: من السحاب الذي فوقكم إلى الأرض تنتفعون به بمشاربكم وسقيكم لزرعكم ومواشيكم، أم نحن المنزلون، ثم يتحدى الله عباده، لو نشاء جعلناه أجاجا، الأجاج أي المالح، فلا ينتفع به لا بشرب ولا بسقي، فعلينا التفكر بقدرة الله على إنزال المطر، وليس فقط إنزاله، وإنما إنزاله نقيا صالحا للشرب، بل أيضا تمكين الله لنا الانتفاع بهذا الماء، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

أي بعد نزول هذا المطر من الذي يمكن للإنسان الانتفاع بهذا الماء إنه الله.

ثانيا: مما يدل على عظم نعمة المطر الأوصاف التي ذكر الله في كتابه،

فأحيانا يصف الله المطر بالبركة، وأحيانا يصفه بالطهر، وأحيانا بأنه سبب للحياة، ونحو هذا من الصفات التي لا تليق إلا بهذه النعمة العظيمة، يقول سبحانه: {وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ} [ق: ٩].

ويقول جل في علاه: {وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} [الفرقان: ٤٨].

ويقول جل في علاه: {وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [النحل: ٦٥].

وغير ذلك من الآيات. فالبركة والطهر وإحياء الأرض في هذا المطر.

يا عباد الله: عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: "لَيسَتِ السَّنَةُ بِأَن لا تُمطَرُوا، وَلَكِنَّ السَّنَةَ أَن تُمطَرُوا وَتُمطَرُوا وَلا تُنبِتَ الأَرضُ شَيئًا". رواه مسلم.

ثالثا– التفكر من خلال إحياء الله للأرض على البعث، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾.

إن من تدبّر الآيات التي تتحدّث عن الغيث يجد أنها في نهايتها تذكر إحياء الله للموتى؛ لأن ظاهرة المطر دليل واضحٌ على إمكانية بعث الله الموتى، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا

عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وذلك أنه إذا نُفِخ في الصور النفخةَ الأولى صَعِق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ويبقى الناس موتى ما شاء الله.

وكل شيء يَبْلَى من ابن آدم إلا عَجْبُ الذَّنَب يبقى تحت الأرض مدفونًا، حتى إذا أراد الله إحياء الموتى أرسل سحابًا يمطر على الأرض أربعين صباحًا كماء الرجال، فينبت الإنسان كما ينبت الزرع، حتى يكتمل نموّه، فينفخ النفخة الثانية فترجع كل روحٍ إلى جسدها، ويقومون من قبورهم.

رابعا– التفكر من خلال إحياء الله للأرض، على إحياء قلوب الأحياء بعد قسوتها، يقول تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. ذكر هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

خامسا– التفكر في أن هذا المطر قد يكون نقمة كما يكون نعمة، ويكون عذابا كما يكون رحمة، فالمطر – أيها الأخوة – جندي من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو، تفكروا كيف كان المطر نقمة على قوم نوح،

وكيف كان نقمة على أهل سبأ في اليمن، الذين أنعم الله عليهم بنعم كثيرة ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

كانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، فلما أعرضوا عما أمروا به، وكفروا ولم يشكروا ربهم على نعمه المتتالية عليهم ماذا حدث؟ ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾.

أغرقهم الله بالسيل، الذي هو من المطر، فهذا كان نقمة ولم يكن عليهم نعمة.

ولذلك – أيها الأخوة – كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى غيما تغير وجهه، كما في الحديث الصحيح، ولما سألته عائشة رضي الله عنها قال: (يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا). رواه البخاري.

بعض الناس يكون فرحا مسرورا، وتجده غافلا عن هذا، ناسيا هدي رسوله عند رؤية الغيم، بل ترى بعضهم مطبلاً ومزمراً عندما يسمع رعدا أو يرى برقا، يظن الجاهل أن المطر نزل لرضى ربه عليه، والأمر ليس كذلك فليس دائما المطر يكون نزوله لرضى الرب عن العباد ألم تسمعوا قوله عليه السلام، كما جاء في الحديث: (لولا البهائم لم يسقوا المطر).

رواه الروياني.

فقد يكون عذابا أو استدراجا أو تنبيها لعباده أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

****

الخطبة الثانية

الحمد لله كما أمر، والشكر له فقد تأذن بالزيادة لمن شكر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: وقفة أخيره، مع هذه النعمة العظيمة، ألا وهي الشكر، علينا عباد الله أن نشكر الله تعالى الذي ينعم علينا بهذه النعمة العظيمة التي لولاها لما كانت حياة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

فأكثروا من شكره، فهو سبحانه يحبّ الشاكرين، ويزيد النعم عند شكرها، اشكروه على إنزال المطر وعلى إنزاله لنا سائغا صالحا للانتفاع به، واشكروه على تمكيننا من حوزته، وإلا لأصبح بقدرته غورا في قاع الأرض فاللهم لك الشكر على آلائك التي لا تعد ولا تحصى، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

عباد الله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

فاذكروا الله العظيم يذكركم، واشكروه على وافر نعمه يزدكم ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون. وصلوا وسلموا على من أمركم ربكم بالصلاة والسلام عليه، فمن صلى عليه صلاة صلى الله عليه بها عشرا.